من تراب الطريق ! (٧٠٦)

مصطفى حسين

رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك ! (*)

تلقيت الخبر الحزين الثانى ، برحيل الصديق الحبيب مصطفى حسين ، بعد أقل من ساعة من تلقى نبأ رحيل أختى رفيقة عمرى ودرب حياتى ، ومع أن معزّة الأخت ووقع وفاتها ، لا يمكن أن يزاحمه خبر أو وفاة أخرى، وقد يصدق عليها ما قاله أحمد شوقى أمير الشعراء يوم وفاة المنفلوطى وقد انشغلت مصر بنبأ إطلاق النار على زعيم الأمة سعد زغلول ، فقال فى مطلع قصيدة نعيه للمنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع

ونعاك فى عصف الرياح الناعى

من مات فى فزع القيامة لم يجد

قدمًا تشيع أو حفاوة ساعى

نعم كان يوم ١٦ أغسطس ٢٠١٤ ، وسيظل « يوم هول » .. اليوم الذى تلقيت فى مطلعه النبأ الحزين برحيل أختى ، وهو « هول » قد يصدق عليه ألاَّ يزاحمه شىء، إلاَّ أن نبأ رحيل مصطفى حسين قد زاحم بجدارة فى صفحة وجدانى ، ووجدتنى أسترجع شريط ذكريات امتدت بيننا فى صفاء ومحبة ومودة قرابة نصف قرن ، منذ كنا نلتئم مع الصديق المشترك الدكتور

(*) المال فى ٢٠١٤/٨/٢٠

فخرى شوشة ، لنمضى اليوم بأكمله فى منزل أصهار فخرى بقرية باسوس ، أو فى ولائم الشواء التى كان يقيمها لنا مصطفى حسين ونتولى الشواء بأنفسنا بشرفة شقته المطلة فى الساحل على نيل القاهرة ، أو فيما كان يقيمه مصطفى من سهرات باهرة من وقت لآخر بداره على حافة شاطئ المتوسط بالقرب من « أبو تلات » بالساحل الشمالى ، أو فيما كنا نجتمع فيه وسط باقة من الأصدقاء بفندق الماريوت على نيل القاهرة ، أو فى الليالى الممتدة التى يشاركنا فيها مصطفى فى ندوة الاثنين الأول من كل شهر التى نعقدها بمنزلى ولم ينقطع عنها إلاّ بداعى المرض اللعين الذى صبر على احتماله فى السنوات الأخيرة ، أو فى صوته الدافئ الممتن الذى يستقبل به مكالماتى التليفونية المتتالية أثناء وجوده بالولايات المتحدة للعلاج .

يوم عرف أننى بسبيل إخراج كتابى « شجون وطنية » عام ٢٠٠٦ ، بادر الصديق الحبيب بالتفضل رغم مشاغله برسم بورتريه الغلاف ، تحمل ملامحى فيه آثار « الشجون » المستمدة من موضوع الكتاب - يومها أدركت لماذا طلب أن يطلع على مسودة الكتاب ليعيش معانيه فيعبر عنها رسمه لملامح البورتريه . وتذكرت كيف لفت مصطفى الأنظار منذ بداياته إلى أنه صاحب مدرسة أضافت إلى فن الكاريكاتير « **تعبير ملامح الوجه** » الذى كان صاحب فتح وموهبة فيه تجاوزت التعبير الجارى بالشكل العام أو بالحركة أو الأوضاع ، إلى الملامح الناطقة لوجوه شخصيات الكاريكاتير التى تكاد تنطق وحدها بكل الجائشات التى يعبر « الرسم » عنها !

هكذا كان مصطفى حسين ، متميزًا فى كل شىء ، غامر الأدب والدماثة، ترى الحزن ناطقًا بكل ملامحه حين تعكرت الصداقة بينه وبين حبيبنا المشترك الأستاذ أحمد رجب ، وكيف كان فرحًا بكل خلجة من خلجاته يوم عادت الحياة بينهما إلى مجاريها .

صحوت صباح ٢٢ يونيو ٢٠١٢ ، على مهاتفة صديق يزف إلىّ أن أطلع على كاريكاتير مصطفى حسين فى مكانه المعتاد بالصفحة الأخيرة بجريدة الأخبار .. لأفاجأ بكاريكاتير صورنى فيه أرتدى ثوب المحاماة مزينًا بألوان علم مصر على شكل كمثرى تحيط بعنقى وصدرى ، ويدى اليسرى مرفوعة إلى أعلى بإشارة موجهة من أصابعى ، ومن تحتها « حقيبة» مكتوب عليها « رجائى عطية » .. ولأجد ذراعى اليمنى تحمل كشافًا مبهر الإضاءة ساطع الإنارة ، ومن المعصم تتدلى لافتة مكتوب عليها « حقائق » .. وبأعلى هذا الكاريكاتير المتفضل الرائع مكتوب « مفكر ينير الطريق » . فقال مصطفى حسين فى ومضة واحدة ما يحتاج من غيره إلى صفحات للتعبير عن المعنى الذى سطع به .. ولم يكتف يومها بما حملته صحيفة الأخبار وطار إلى قرائها فى كل الدنيا ، فأعد نسخة مكبرة أتانى بها لتزين أحد جدران الصالة التى نعقد فيها ندواتنا الشهرية .

و إن أنسى فلن أنسى يوم أطل بقامته الفارهة من باب دارى وهو يحمل بنفسه لوحة كبيرة ببروازها ، ليرفع عنها الغلاف فإذا ببورتريه تفضل الصديق الحبيب برسمه ، واختار مكانًا ليضعه أمامه ليخرج عبوة رشاشة

طفق يرش بها اللوحة ، فلما لمح الاستيضاح المتسائل على قسماتى ، أوضح لى أنها مادة لتثبيت الصورة والألوان حتى لا يتعرض الرسم لعوامل التعرية !

ماذا أقول وقد أعطانى مصطفى حسين ضمن شواغله العديدة جدًّا هذا الاهتمام المتزايد ، وهذا الرضاء الداخلى الذى بثه فى أعماقى بأن هذه العبقرية المتفردة تعطينى من صدق مودتها ومحبتها كل هذا العطاء .

نعم ، كان مصطفى حسين أخًا لى لم تلده أمى ، منحنى أخوة نادرة تحتاج إلى كتاب كامل أعبر فيه عن قسماتها ، وعن قسمات هذا العبقرى الإنسان جم التواضع ، دمث الخلق ، رقيق البسمة التى تولدت عنها العبقرية التى بثت الضحكة والسعادة مع الغذاء الفكرى الرفيع إلى الملايين.. اختطفه الموت ونحن ومصر فى أمس الحاجة لاستمرار عطائه الدافق العزيز .

رحم الله مصطفى حسين بقدر ما أعطى ، وبقدر نقاء سريرته وفيض مودته وإخلاصه وإنسانيته ، وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا وألهم أهله وذويه ومحبيه الصبر والعزاء .

* * *